مع الزمخشري في "أساس البلاغة"

حوارات و رؤى

للدكتور / عبد الحكم صالح عبد الحفيظ سلامة

حظيت اللغة العربية من أبنائها وذويها ، فضلا عن غيرهم كذلك ، بما لم تحظ به لغة سواها ، وذلك باستثناء الشعب الصينى ـ على حد ما جاء فى مقدمة معجم فيشر (١) .

فقد كان اعجاب العرب بلغتهم فائقا ، وبخاصة أنها لسان الذكر الحكيم ، فراحوا يتنافسون فى خدمتها بالدراسة والبحث والتحليل منذ فجر حضارتهم ، خدمة واعية مخلصة للقرآن الكريم .

وقد اتسعت أمام فرسانهم ميادين البحث والدراسة ، وامتلأت بهم شعاب الخدمة لهذه اللغة ، فى شتى المجالات ، حتى عجت المكتبة العربية والاسلامية ـ قديما وحديثا ـ بنتاجات قيمة وعميقة ، تمخضت عنها جهود هؤلاء العلماء البررة ، وقدحهم لزنادات عقولهم ، واعتصار كل منهم فكره ، ولعل من الشواهد الواضحة على ذلك ما ذكره السيوطى فى (المزهر) من أن بعض الملوك أرسل الى الصاحب بن عباد يطلب اليه القدوم عليه ، فما كان من الصاحب الا أن قال جوابا على ذلك انه فى حاجة الى ستين من الجمال ، لينقل على ظهورها كتب اللغة التى عنده (٢) .

ولم تحتشد تلك الثروة التأليفية فى اللغة ، فى بابة واحدة ، ولم تتقوقع فى مجال واحد بحيث نجد الآخر يكتفى باجترار نتاجات الأول وحسب ، بل كانت ميادين البحث اللغوى أمام نشاطاتهم متنوعة

---

(١) مقدمة معجم فيشر /٣ .
(٢) المزهر : ١/٢ .

منداحة ، فانعكس ذلك على نتاجاتهم تنوعا وشمولا لكل جوانب اللغة وعلومها ، حتى ليكاد يصدق على معظمنا نحن - حفدة هؤلاء وأولئك - قول الشاعر :

ما أرانا نقول الا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

ومن تلك النتاجات الفذة لسدنة اللغة الأقدمين ، تلك المعجمات الضخمة الجامعة ، والتى حفلت بالثروة اللفظية للغتنا العربية ، وضمتها بين جوانحها تراثا غاليا نفيسا عزيزا ، على تنوع فى الهدف والمنهج بين هذه المعجمات بعضها وبعض .

وقد حظيت تلك المعجمات - على تنوعها واختلاف مدارسها - بجهود الكثير من الباحثين فى اللغة قديما وحديثا ، من عرب وغير عرب ، وكانت تلك الجهود تحتشد لوصف تلك المعجمات الضخمة ، وتتبع مناهجها المتنوعة ، وتوصيف عيوبها وما يؤخذ عليها ، وذلك تساميا بالدرس المعجمى اللاحق ، عما يكون قد انزلق فيه قدم السابق ، توجها الى الكمال - ما امكن - .

وما تزال قافلة البحث تغذ السير على هذا الطريق ، تناميا بالحضارة الانسانية ، وتطورا بالثروة الفكرية ، وتلك فى حد ذاتها عبادة من كبريات العبادات ، وتبتلات خاشعة صبور ، فى أقدس المحاريب .

وانصافا نقول : ان من الدراسات التى قد أصابت المجز فى هذا الميدان ، وبلغت فيه شأوا عظيما ، ما قام به الدكتور حسين نصار فى دراسته (المعجم العربى ... نشاته وتطوره) اذ أنه قد تمكن من تناول المعاجم العربية تناولا تاريخيا شاملا ، بحيث برزت من خلال دراسته تلك ، مجموعة فى نسق تفصيلى ، مؤسسا ذلك على منهج علمى دقيق .

وتعتزم هذه الدراسة المبتدئة والمتواضعة ، أن تنشط فى هذا الاطار ، وهى تتغيى أن تضيف الى البناء الثقافى والحضارى لأمتنا

ولو لبنة ، من خلال حوار علمى هادىء هادف حول معجم من معاجم العربية هو (أساس البلاغة) للعلامة الزمخشرى .

ويتمثل ذلك الحوار - فى اطار أكثر محدودية مساحية - فى أمر شاع بين الدارسين والباحثين أنه يمثل خصيصة ذلك المعجم ، أو ان شئت الدقة فقل انه يمثل أبرز خصيصة فيه ، وهى فصله المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية .

وبداية نقول : انه ليس من نافلة القول أو مكرور الكلم أن نحدد المراد من مصطلح (معجم) ، وذلك اتيانا للبيوت من أبوابها ، واستصحابا للقارىء الكريم من بداية الطريق ... فما المقصود من مصطلح : (معجم) ؟

عرفه بعض الباحثين بأنه : « كتاب يضم ألفاظ اللغة ، مرتبة على نمط معين مشروحة شرحا يزيل ابهامها ، ومضافا اليها ما يناسبها من المعلومات التى تفيد الباحث ، وتعين الدارس على الوصول الى مراده » (٣) .

ولا نكاد نلمح تغير كبيرا فى المحتوى من خلال ذلك التعريف ، حين نضع بازائه ما ذكره أستاذنا الدكتور / شعبان عبد العظيم ، من أن المعجم : « عبارة عن مؤلف يجمع بين دفتيه ثروة لغوية ضخمة ، تمثلها مفردات اللغة ، وبصحبتها توضيح وشرح لمعانيها واشتقاقاتها ، مرتبة ترتيبا مبوبا أو مجنسا ، مع ايراد الشواهد المدعمة لهذا الشرح » (٤) .

وان يكن التعريف الثانى قد التفت الى مسألة ايراد الشواهد التى تدعم العمل المعجمى ، وتؤصل للفظ ودلالته بما يضمن لهما صحة النسب العربى ، فقد التقى التعريفان فيما عدا ذلك .

---

(٣) المعاجم اللغوية - للدكتور ابراهيم محمد نجا : ٥ .
(٤) المعجم العربى دراسة ونقدا : ١٠ - ١١ .

بيد أن التعريفين معا قد نصا على احتواء المعجم الفاظ اللغة ، تلك الثروة التى تتمثل فى المفردات اللغوية ، فى حين أن أحد الباحثين (٥) يرى أن ذلك الذى يضم جميع كلمات اللغة مصحوبة بشرح معناها ، واشتقاقها ، وطريقة نطقها ، وشواهد تبين مواضع استعمالها ، انما هو المعجم الكامل .

وبعد ، فلعل هذا يتادى بنا الى نقطة الالتقاء بمعجمنا (أساس البلاغة) لجار الله الزمخشرى ، اذ هو المعجم المحورى فى هذه الدراسة ، فمعه الحوار ، ومن أجله كانت الدراسة .

تسمية مشعة :

لكل حظ من اسمه ... وقد سمى (جار الله) معجمه هذا باسم (أساس البلاغة) ، ونحن بدورنا نستطيع من اسمه أن نستشرف وجهته ... ذلك بأننا من خلال الاسم نلحظ أن ميدان نشاطه ليس اللغة ، على تلك الوتائر المعهودة فيما سبقه من معاجم اللغة من حشد الألفاظ بازاء معانيها المجردة ، بل نجد صاحبه من خلال اسم المعجم يتبدى لنا ملوحا بأن معجمه هذا أميل الى البلاغة (٦) .

لقد أراد (جار الله) أن يضرب بأسهمه العلمية النوافذ ، فى ميدان يتميز به عن سائر المعجميين من قبله ، وذلك فى اطار العناية باللغة .

فاتجه - رحمه الله - الى عمل معجمى بكر فى بابه ، اذ هو عمل يجمع الى خدمة متن اللغة ، خدمة البلاغة كذلك فى الآن عينه .

فراح - رحمه الله - يورد الحشود اللفظية ، فى معارض من رفيع القول كما ترفل فى بجاد من بديع الكلم .

---

(٥) الدكتور عطار فى مقدمة الصحاح : ٣٨ .

(٦) ينظر فى ذلك : المعجم العربى . د . حسين نصار : ٦٩٠ بتصرف .

تتجسد فى هذا الأنموذج المعجمى الجديد الفريد ، سدانة واعية مخلصة للذكر الحكيم وكأنى به آنئذ ، يتغيى أن يدعم وجهته فى (الكشاف) التى تعتزم - فى عمق وحكمة وأصالة - ابراز آنق خصيصة فى كتاب الله - تعالى - وهى بلاغته الساحرة العروب .

واستمع معى فى هذا الى الزمخشرى - رحمه الله - اذ يقول : « هذا ، ولما أنزل الله - تعالى - كتابه مختصا من بين الكتب السماوية ، بصفة البلاغة ، التى تقطعت عليها أعناق العتاق السبق ، وونت عنها خطا الجياد القرح (٧) ، وكان الموفق من العلماء الأعلام ، أنصار ملة الاسلام الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء ، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء ، حين تحدوا به من الاعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، والفزع الى المقارعة بأسنة أسلهم ، من كانت مطامح نظره ، ومطارح فكره ، الجهات التى توصل الى تبين مراسم البلغاء ، والعثور على مناظم الفصحاء والمخايرة بين متداولات ألفاظهم ، ومتعاورات أقوالهم ، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا ، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا ، وما استركوا (٨) واستنزلوا ، وما استفصحوا واستجزلوا والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الاعجاز أوقف ، وبأسراره ولطائفه أعرف ، حتى يكون صدر يقينه أثلج ، وسهم احتجاجه أفلج (٩) ، وحتى يقال : هو من علم البيان حظى ، وفهمه فيه جاحظى والى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير اليه محمود بن عمر الزمخشرى ، عفا الله عنه فى تصنيف (كتاب أساس البلاغة) » (١٠) .

أهداف معجم أساس البلاغة :

وفى ضوء ذلك النص الذى سقناه عن (جار الله) تمكن الدكتور/

---

(٧) هى الخيول التى بلغت السادسة وفيها تكتمل ، ويريد الرجال مكتملى الرجولة .

(٨) استركوا : استضعفوا .

(٩) أفلج ، من الفلج وهو الظفر والفوز .

(١٠) مقدمة مؤلف الأساس : ى ، ك .

(حسين نصار) ـ فى حكمة ولماحية ـ من أن يبلور أهداف (الزمخشرى) فيما يلى :

١ ـ هدف دينى ، يتمثل فى استكناه مراسم البلاغة التى تشف عنها أقوال العرب ، تساميا من ذلك الى تعرف مراسمها فى الذكر الحكيم .

٢ ـ هدف علمى نظرى ، يتمثل فى استنبات القدرة البيانية فى مطالعى (أساس البلاغة) وشحذ أفهامهم ، وتمكين الايمان باعجاز القرآن فى صدورهم ، وشحن عقولهم بالطاقات الحجية فى مقارعة الخصوم ، « حتى يكون صدر يقينه أثلج ، وسهم احتجاجه أفلج » (١٠) على حد تعبير العلامة (جار الله) فى مقدمته ، بين يدى (أساس البلاغة) .

٣ ـ هدف علمى تطبيقى : يتمثل فى تربية أجيال من فحول البلغاء ، وأساطين الأدباء ، على تلك المائدة الثرية المترعة (أساس البلاغة ... فها هو ذا (جار الله) يقول : « فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الاعراب ، الذى هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها ، ومعيار حكمة المواضع وفسطاطها ، وأصاب ذروا (١١) من علم المعانى ، وحظى برش من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة ، فحل نثره ، وجزل شعره ، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين ، ويخاطر المقرمين » (١٢) .

ووصولا الى هذا الهدف العام ، الذى استهدفه (جار الله) من (أساس البلاغة) ، ذلك الهدف العام المتمثل فى أن (الزمخشرى)

---

(١٠) مقدمة مؤلف الأساس : ى ، ك .

(١١) ذروا : حظا وطرفا .

(١٢) مقدمة أساس البلاغة : ل وينظر فى هذه الاهداف المعجم العربى نشأته وتطوره : ٢/ ٦٩٠ ، ٦٩١ . ويقارن بالمعجم العربى دراسة ونقدا : ١٥٥ بتصرف .

يريد معجما بلاغيا ، وليس لغويا بحتا - نجده - رحمه الله - يعنى بالعبارة المركبة ، ذات المستوى الفنى الرفيع ، فيورد الألفاظ فى وشى من الأساليب العالية فى عالم اللغة والأدب ، على سواء ، ولا يكتفى - كسابقيه من المعجميين - بايراد الألفاظ عارية جرداء عاطلة الجيد من تركيب جميل ، أو المعصم من سوار نفيس لألاء .

وقد تتبدى لنا هذه الرؤية واضحة مجسمة ، اذا استمعنا الى (الزمخشرى) - رحمه الله - اذ يقول : « ومن خصائص هذا الكتاب (يقصد أساس البلاغة) ، تخير ما وقع فى عبارات المبدعين وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها ، من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ، لجريها رسلات على الأسلات ، ومرورها عذبات على العذبات » (١٣) .

وتحقيقا لتلك الأهداف الثلاثة التى مضت سلفا ، كان ميدان نشاط (الزمخشرى) - رحمه الله - منداحا مترعا بالعبارات الرفيعة العالية فى عالم الأدب واللغة - على سواء - .

وقد تأدى به ذلك الى ألا تكون موارده التى وردها ليصدر عنها ببغيته (أساس البلاغة) ، هى نفسها مصادر تلك المعاجم التى كل همها حشد معظم ألفاظ اللغة مترافقة معها دلالاتها المجردة .

بل تمثلت موارد (الزمخشرى) التى صدر عنها ببغيته (أساس البلاغة) فى تربة أخرى خصيبة ، هى التى تستنبت فى ثراها البكر الثرى بذور الأدباء ... انها تربة الأدب نفسه .

ولا غرو - وهو ينشد تربية أجيال من صاغة الكلم ومتذوقيه - كما صرح بذلك هو - نقول : لا غرو - والحال هذه - أن يكون مصدره فى (أساس البلاغة) : هو الأدب نفسه .

---

(١٣) مقدمة الأساس : ك .

أو ليس (جار الله) هو القائل عن كتابه (أساس البلاغة) : « فليت له العربية وما فصح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، ومن قراضبة (١٤) نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها (١٥) ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها (١٦) ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة (١٧) ، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، وما طولع فى بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنة ، وجوامع كلم فى أحشائها مجتنة » (١٨) .

الخصيصة المشهورة لأساس البلاغة :

حين نحاول تلمس الخصيصة المشهورة التى تميز « أساس البلاغة » عن غيره من المعجمات ، تستلفتنا ظاهرة فصل المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، كظاهرة فارقة بين « أساس البلاغة » وغيره من المعجمات .

يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم نجا ـ رحمه الله ـ : « ان من يرجع الى هذا المعجم (يقصد أساس البلاغة) يبدو له الهدف الواضح والفكرة الجديدة ، لأنه (يقصد الزمخشرى) وجد المعاجم ، قد عنيت بحشد الألفاظ ، على مناهج متفاوتة ، وطرائق مختلفة ، والقيام بشرحها ، مما يزيل غامضها ويكشف ابهامها ويؤيد هذا الشرح بما يورد من كلام

---

(١٤) القراضبة جمع ، مفرده قرضوب ، وهم الصعاليك واللصوص .
(١٥) القلب : الآبار ، واحدها قليب .
(١٦) العلب : جمع علبة . وهى قدح ضخم من جلود الابل أو من خشب يحلب فيه .
(١٧) المماتنة : المغالبة فى المتانة .
(١٨) مقدمة الأساس : ل وينظر حسين نصار (المعجم العربى نشأته وتطوره) : ٦٩٣ وما بعدها .

العرب ، مع العناية بالضبط ، وغير ذلك من الأسس التى راعاها أصحاب المعاجم الذين سبقوه .

فأراد الزمخشرى أن يبرز فى ميدان آخر ، وان كان منوطا باللغة متعلقا بها . وذلك هو تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، لأن تلك الناحية لم يعن بها لغوى فى معجمه » (١٩) .

بل ان أحد الباحثين (٢٠) يعد ظاهرة تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، خطوة موفقة فى طريق اعداد المعجم التطورى ، الذى يعرض اللفظ ومعانيه القديمة والمولدة والمحدثة فى صورة المجاز .

فعناية (الزمخشرى) بافراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح جعلته ينفرد بين معاجم العربية بهذه الميزة (٢١) . ، « فقد وجد (الزمخشرى) أن الذين سبقوه ممن ألفوا فى علم المعاجم قد خلطوا المعانى الحقيقية بالمعانى المجازية ، ولم يهتموا بتمييز كل منهما عن الآخر ، فأراد لكتابه (أى أساس البلاغة) أن ينفرد بهذه الخاصية ، كما انفرد الأزهرى والجوهرى بانتقاء الصحيح من الألفاظ » (٢٢) .

فجميع من رجعنا اليهم فى هذا الشأن يقررون أن (الزمخشرى) حين ميز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، كان الرائد فى ذلك من بين المعجميين حتى لقد « قلده فيها (أى فى هذه الظاهره) اللاحقون ومن هؤلاء ابن الطيب فى اضاءة الراموس ، والزبيدى فى تاج العروس ، وغيرهما ، واعتمدوا فى تلك الناحية على (أساس البلاغة) لـ (الزمخشرى) » (٢٣) .

---

(١٩) المعاجم اللغوية : ١٧٩ .

(٢٠) دكتور ناجح عبد الحافظ مبروك فى كتابه (دراسات فى المعجمات العربية) : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢١) المعجم العربى دراسة ونقدا : ١٦٤ .

(٢٢) الفكر المعجمى عند العرب قديما وحديثا : ١٨٠ .

(٢٣) المرجع نفسه : ١٨٤ ، ١٨٥ .

واذا كان الدكتور (حسين نصار) يعد - من وجهة النظر المنصفة - أكثر الذين تناولوا المعجمات العربية منهجية وعمقا ، فها هو ذا يقول : « يخرج الباحث من دراسة « أساس البلاغة » بمجموعة من الظواهر ، تخالف ما ألفناه فى المعجمات الأخرى كثيرا . وأهم الظواهر فى (الأساس) عنايته الشديدة بالمجاز ، حتى أفرد له قسما خاصا فى أكثر المواد ، فصله عن القسم الذى يتناول المعانى الحقيقية . بل نثر كثيرا من العبارات المجازية أيضا فى هذا القسم الحقيقى ... والأساس هو المعجم الوحيد فى العربية ، الذى يعنى بهذا الجانب ، حتى تأثر به أصحاب المعاجم المتأخرة » (٢٤) .

وقد يتبلور لنا مما قرأناه فى هذه النقطة ، أن (الزمخشرى) قد عنى الى درجة كبيرة فى (أساس البلاغة) بظاهرة التمييز بين المعانى الحقيقية والمعانى المجازية .

ولعل ذلك يعزى الى شيوع دراسة المجاز والحديث عنه فى عصر (الزمخشرى) فضلا عن القرن السابق عليه ، فقد ذكر الدكتور (حسين نصار) عن ابن تيمية قوله : « تقسيم الألفاظ الى حقيقة ومجاز انما اشتهر فى المائة الرابعة ، وظهرت أوائله فى المائة الثالثة ، وما علمته موجودا فى المائة الثانية ، الا أن يكون فى أواخرها » (٢٥) .

فشيوع دراسة المجاز وكثرة الحديث عنه فى زمن الزمخشرى كان منبعث (الزمخشرى) تجاه تلك الظاهرة ، بالاضافة الى طرافة المجاز وخلبه لب (الزمخشرى) وغيره فى ذلك الوقت ، بدليل صنيعه الرائد الفذ فى تفسيره (الكشاف) .

على أن توجه العلماء المحدثين الذى عرضناه فيما أنف ، المتمثل فى القول بأن تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، انما يجسد الظاهرة

---

(٢٤) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٢/٦٩٧ .
(٢٥) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٧٠٤ .

الفارقة بين (أساس البلاغة) وما سبقه من معجمات لغوية ، هذا التوجه من المحدثين يعد ـ بلا مبالغة ـ امتدادا لتوجه علمى قديم « فابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ الذى جمع المجازات الواردة فى (أساس البلاغة) فى كتاب خاص بها سماه : (غراس الأساس) يقول فى مقدمته : « فرأيت أن المهم منه ما تميز به عن الكتب المصنفة فى اللغة من تبيين الحقيقة من المجاز ، والتمكن من اجتناب الاسهاب وارتكاب الايجاز » (٢٦) .

ولعل اتجاه العلماء قديما وحديثا الى أن الظاهرة الفارقة بين (أساس البلاغة) وما سبقه من معجمات ، تتمثل فى تمييز الحقيقة عن المجاز ، لعل مبعث ذلك ما أورده (الزمخشرى) نفسه ، وهو يشير الى خصائص كتابه : « ومنها تأنيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح ، بافراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح » (٢٧) .

رؤيـــة بصـــيرة :

وبازاء كل ما سلف تستوقفنا رؤية علمية بصيرة للأستاذ أمين الخولى ـ رحمه الله تمثل حجر الزاوية فى هذه المسألة .

فقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن (الزمخشرى) نفسه يعد من خصائص كتابه افراد المجاز عن الحقيقة ، والكناية عن التصريح ، وأن هناك من العلماء من وافقوه فى ذلك فراوا أن ميزة (الأساس) التى تميزه عن سائر المعاجم العربية هى تفريقه بين الحقيقة والمجاز (٢٨) .

---

(٢٦) تنظر كلمة المرحوم الاستاذ / أمين الخولى فى صدر أساس البلاغة : هـ ، و .

(٢٧) ينظر فى ذلك مقدمة الأساس : ل واشارة الى هذا فى كلمة المرحوم الاستاذ / أمين الخولى : هـ .

(٢٨) كلمة المرحوم الاستاذ / أمين الخولى فى صدر كتاب (أساس البلاغة) : هـ ، و .

ثم قال : « لكن كاتب هذه الكلمات (يقصد نفسه) - رحمه الله - لا يساير القوم كثيرا فى التسليم بهذه الخصيصة والاهتمام بتلك الميزة فى (أساس البلاغة) » (٢٩) .

ولم يكن المرحوم الأستاذ أمين الخولى ، يصدر فى توجهه ذلك عن عاطفة أو هوى ، أو عن المخالفة لذات المخالفة ، بل خرج برؤيته هذه علينا مدعومة بالأدلة مزجاة بالحجج العلمية الدوامغ ، فتراه يعلل ذلك بأن المعنى الاصطلاحى المستقر للمجاز اللغوى لم يكن قد بلغ مداه ، عندما كتب (جار الله) كتاب (أساس البلاغة) .

ثم هو - رحمه الله - قد أكد ذلك بوجود شىء من اختلاف الفهم للمجاز اللغوى عند (الزمخشرى) فى القرن السادس الهجرى ، و (ابن حجر العسقلانى) صاحب (غراس الأساس) فى القرن التاسع الهجرى ، وذلك بعد أن تم الاستقرار على معنى المجاز اللغوى ، المتعارف عليه فى كتب القوم .

ومعروف أن (غراس الأساس) كتاب جمع فيه (ابن حجر العسقلانى) المجازات الواردة فى (أساس البلاغة) .

وقد التقط المرحوم / أمين الخولى من مقدمة (غراس الأساس) ، بل من مراجعته (غراس الأساس) ومقابلته على (أساس البلاغة) مخالفات واضحة خالف فيها (ابن حجر العسقلانى) الامام (الزمخشرى) .

فعلى حين أن (الزمخشرى) يقول فى مادة (أ ت ب) : « ومن المجاز : هذا غلام قد تأتب السلاح ، اى لبسه ، وتأتب القوس : اذا أخرج منكبيه من حمالة القوس فصارت على كتفيه » فقد وجد المرحوم / أمين الخولى (ابن حجر) لم يورد ذلك لأنه لم يره مجازا حقا .

وتكتمل خطوط صورة المخالفة من (العسقلانى) للعلامة

---

(٢٩) المرجع نفسه : و .

(الزمخشرى) بما أورده المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ، مما عده (ابن حجر) مجازا ، فى حين أن العلامة (الزمخشرى) لم يذكره على سبيل المجاز .

فقد ضرب المرحوم الأستاذ / أمين الخولى مثلا لذلك من مادة (أ ت ى) ، مبينا أن ابن حجر ، ذكر فيها مجازا فى (غراس الأساس) اذ قال : تأتى له أمره ، اذا تسهلت طريقته ، قال الشاعر :

(تأتى له أمره حتى انجبر)

وأدى لتاوة أرضه ، أى خراجها .. وضرب عليهم الاتاوة ، أى الجباية » (٣٠) .

ومن خلال ذلك تتبلور لنا رؤية المرحوم الأستاذ / أمين الخولى فى هذه المسالة فيما صرح به اذ قال : « وفى ذلك القدر ما يكفى للقول بان (الزمخشرى) على الأقل لم يستقص تتبع المجازات اللغوية بالنص عليها فى أساسه ، الذى زعم له هو نفسه هذه الميزة ـ كما سمعت ـ وان كنت ترى فى مخالفة (ابن حجر) له واسقاط ما صرح بانه من المجاز فى مادة (أ ت ب) ـ على ما رأينا ـ ، ما يرجح التعليل الذى اطمأننا اليه ، وهو أن الاصطلاح على معنى المجاز ، لم يكن فى عهد (جار الله) مستقرا تمام الاستقرار » (٣١) .

ثم يصرح برأيه فى المسالة بلا مواربة اذ يقول عقب ذلك مباشرة : « ولهذا السبب أو ذاك ، لا أساير القوم فى القول بان أهمية معجم (أساس البلاغة) ترجع الى افراد المجاز ـ بمعناه الاصطلاحى الأخير ـ عن الحقيقة !! » .

---

(٣٠) كلمة المرحوم أمين الخولى فى صدر كتاب اساس البلاغة : هـ ـ ز ـ بتصرف .

(٣١) المرجع نفسه : ز .

ميزة (أساس البلاغة) كما يراهـا امين الخولى :

وثمة سؤال يطرح نفسه متمثلا فى انه اذا كان الأمر على ما مضى فالى أى شىء ترجع اهمية (أساس البلاغة) فى نظر المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ؟ وبم يتميز عن غيره من المعجمات ؟ .

وهنا نبادر فنقول : لئن وفق الله الغير على القـــرآن الكريم ، فتواثبت خطا أقلامهم متوازية مع تطور الحياة وارتقاء الحضـــارة ، وتسامت هممهم متسامتة مع تدرج الحياة وترقيها على جميع مستوياتها ، فغدا الحلم على أيديهم حقيقة ، وبدا الأمل من خلال جهودهم واقعـــا مشهودا ، بأن أشرق فى دنيا العلم ، أمل كل مخلص للعربية ، متمثلا فى ذلك المعجم التاريخى ، الذى يعد فى نظر الجميع ـ دون مبالغـــة أو مغالاة ـ ضالة هذه اللغة الكريمة الحكيمة العريقة .

أقول : لئن وفق الله فتحقق ذلك الأمل الواعد ، لتمسين كل قيمة معاجمنا القديمة متمثلة فى أنها أسانيد تاريخية ، ونفائس أثرية ، تعكس اخلاص علمائنا الأقدمين للغة العربية وعنايتهم بها ، ثم يقتصر دورها فى حياتنا اللغوية على جانب مهم من جوانب اللغة ، وهو الشهادة القويـة بصحة نسب الكلم العربية وأصالته وعراقته وبازاء كل كلمة دلالتهـــا المعجمية المجردة ، أو الهيكل العظمى لدلالتها .

اما أن يكون لها على ساحة البحث اللغـــوى والمعجمى والدلالى نشاطها الكائن اليوم فلا اخال ذلك كائنا فى وجود ذلك الأمل النفيس الواعد ، الذى هو أنشودة الخلود فى فم كل لغوى مخلص للغة القرآن الكـــريم .

واذ تتبدى تلك المقولة على أنها عامة تشمل كل معاجمنا القديمة ، فان معجمنا (أساس البلاغة) سيكون هو المعجم الوحيد المستثنى مـــن عموم هذه المقولة .

فلن يدلف به محتواه لتأخذ حياته فى ساحتنا العلمية ، تلك النمطية الأثرية أو الصبغة الكنزية ، كأثر علمى له نفاسته بما يحوى وما عليه ينطوى ، من ذخيرة لغوية أو ثروة لفظية .

بل سيتبوأ هذا المعجم - بصفة خاصة - مكانة التوجيه والهداية - ولو الى حد ما - لشداة التأريخ للمعانى والدلالات .

وذلك ما عناه المرحوم الأستاذ / أمين الخولى بقوله : « تنتصر الحياة اليوم أو غدا ، فتوجد معاجم تتابع تطور اللغة ، وتساير تدرجها ، وتحرك تلك المعاجم التى وقفت عند ثنيات الطريق ، وتخلفت عند مرحلة تبعد كثيرا عما انتهت اليه الدنيا اليوم .

ويبقى الأصلح فيتداول الناس المعاجم الجديدة الحيوية فى مادتها الوافرة ، واستجابتها المسايرة ، وصورتها الناضرة ، وترتيبها الميسر ، واخراجها المحبب ... ويوم يكون ذلك - وهو لابد كائن - تمسى المعاجم القديمة مراجع تاريخية ، ومراحل أثرية فى سير الحياة اللغوية العربية ... لكن حين يكون ذلك شأن عامة المعاجم كاللسان ، والقاموس ، والصحاح ، وما اليها ، يكون من بينها معجم ، يستطيع أن يحيا حياة غير أثرية ، ويقوم غير تلك القيمة التاريخية ، وذلك هو (أساس البلاغة) لجار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هجرية - رحمه الله - » (٣٢) .

وحسب هذا التوجه - علميا ونأيا عن المبالغة والمغالاة - أن (جار الله) بمنهجه فى (أساس البلاغة) لم يتبع أولئك النفر من المعجميين السابقين عليه ، على طريق حشد المواد اللغوية بازاء دلالاتها المعجمية المجردة وحسب ، بل هو - رحمه الله - يفتن فى ابراز المادة اللغوية فى العديد من المعارض الأدبية من رفيع الكلم ولحن القول ، بحيث

---

(٣٢) المرجع السابق : هـ .

يتمكن مرتاده من استشار نبض المادة بالدلالة من خلال المعارض الأدبية التى ترد فيها .

ونحسب (جار الله) بعمله ذلك يؤسس لوسطنا العلمى ما يتنادى به الذين قد أوتوا القدرة على تذوق طعوم الكلم من أن الكلمة تستمد حياتها من السياق .

ثم هو الى ذلك ، يضع بعض الصوى على طريق تأريخ الدلالات المتعددة والمتنوعة للمادة اللغوية .

انه ليس ثمة ظل من ريب فى أن الاستعمال - سيما فى تلك العصور المشرقة الزواهر من حياة لغتنا العربية - له فى حياة الكلمة ، وتبيان دلالتها ، والتأريخ لذلك التطور الدلالى أثره الواضح غير المنكور .

ثم ان (جار الله) - ايمانا منه بأن الدلالة المعجمية المجردة ، ليست هى كل عطاء المادة اللغوية ، وأنها - بلا أدنى شك - ليست هى الدلالة الأدبية المشحونة بطاقات التأثير النفسى فى المخاطب أو فى القارىء ، عن طريق ما تفجره بداخله من مشاعر ، وما تشى به من ايماضات ، وما تلفت اليه من ايماءات ، وما تبعثه من ايحاءات وما تفسحه من آفاق ، وما تنشئه من عوالم رحيبة فساح - .

نقول ان (جار الله) - ايمانا منه بذلك - راح فى (أساس البلاغة) يقدم لنا الكلمة عبر تركيب أدبى من رفيع فن الكلم ، وبديع لحن القول ، ليفتح عيوننا على مصادر ايحاء اللفظ ، ومباعث تأثيره النفسى وسحره الحلال .

ويدعم ذلك قول (الزمخشرى) - رحمه الله - عن كتابه : « فليت له العربية وما فصح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الأعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ومن قراضية نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها وما

تراجزت به السقاة على افواه قربها ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة ، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، وما طولع فى بطـــون الكتب ومتون الدفاتر من روائع مفتنة ، وجوامع كلم فى احشائها مجتنة » (٣٣).

لقد أرفد (الزمخشرى) فى (أساس البلاغة) شـــداة الكلم ، والمتبتلين فى محاريب النظم الآسر الخلاب ، برافد كوثرى عـــذب رقراق ، من رفيع الفن وبديع الأساليب ، بما يعد انموذجا ينســـج العاشقون للكلم المؤثر على منواله ووترا يضرب الشـــداة عليه مـــا يشاءون .

وهذا هو (جار الله) يقول : « ومن خصائص هذا الكتاب (يقصد أساس البلاغة) تخير ما وقع فى عبارات المبدعين ، وانطوى تحـــت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها ، مـــن التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ، لجريها رسلات على الأسلات ، ومرورها عذبات على العذبات ، ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف ، وتعريف مدارج الترتيب والتوصيف بســـوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا ، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية الى مراشد حر المنطق ، الدالة على ضالة المنطيق المفلق » (٣٤) .

وواضح من كل أولئك أن (جار الله) يهدف من وراء ذلك الى تربية الذوق وصقله ادى الشداة ، للبناء على ما أسس أسلافهم ، وامتشاق حساماتهم فى ساح اللسن ووغى البلاغة والبيان .

وقد صرح هو بذلك اذ قال : « فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الاعراب ، الذى هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها ، ومعيار

---

(٣٣) مقدمة الأساس : ك .
(٣٤) مقدمة الأساس : ك ، ل .

حكمة المواضع وفسطاطها وأصاب ذروا من علم المعانى ، وحظى برش من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة ، وسليقة سليمة ، فحل نثره ، وجزل شعره ، ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين ، ويخاطر المقرمين » (٣٥) .

والمرحوم الأستاذ /أمين الخولى قد أشار الى ذلك - فى وضـــوح وحكمة ولماحية - حيث قال : « فـ (أساس البلاغة) بهذا الصنيع الذى وصفه مؤلفه يقدم لنا ، عن دلالات الكلمات ، عنصرين من العناصر التى يهتم بها فن القول فى تحديد هذه الدلالة .

وأول هذين العنصرين هو : أثر الاستعمال فى حياة الكلمة وتعيين دلالتها ، وتحديد معناها ، فبتخير (الزمخشرى) ما انطـــوى تحت استعمالات المفلقين - كما يقول - يعطينا مواد لمعرفة استعمال الكلمات حتى القرن السادس ، وينير الطريق لمن يحاول تاريخ تلك الدلالات ، تاريخا يعرف أهميته من يتصدى للدرس الأدبى ، ويرى ضرورة تحديد الدلالات لألفاظ النصوص الأدبية فى عصورها المختلفة حتى يمكن فهم تلك النصوص ، فهما نفسيا دقيقا ، جديرا بمستوى الدرس الأدبى الذى يلائم المستوى الثقافى اليوم » (٣٦) .

وعن العنصر الثانى يقول - رحمه الله - :

« وثانى العنصرين اللذين يقدمهما (الزمخشرى) بأساسه الـــى أصحاب فن القول هو : شىء عن ايحاء الكلمة ووقعها على نفس السامع ، فان أصحاب هذه العناية الفنية يقررون أن الدلالة المعجمية المجردة ، التى يقدمها المعجم عادة ، حين يسرد المعانى سردا ، غير لافت الى شىء من التراكيب الحسنة ، أو نوابغ الكلم الهادية الى مراشد حر المنطق ، كما قال (الزمخشرى) وفعل ... هذه الدلالة المعجمية المجردة ليست

---

(٣٥) المرجع نفسه : ل .
(٣٦) كلمة المرحوم الأستاذ/أمين الخولى فى صدر أساس البلاغة : ح .

هى كل دلالة الكلمة ، بل ليست الدلالة الأدبية التى تحمل عنصر التاثير النفسى للكلمة ، وما لها من وقع على سامعها بما تثير من أحاسيس ، وما تلفت اليه من آفاق ..... فـ (أبو القاسم) حين لا يكتفى بسرد اللفظة المفردة والى جانبها معناها المجرد ، الـــذى ليس الا الهيكل العظمى لدلالتها ، بل يقدمها فى تركيب ، ويهدى الى مراشد حر المنطق ، الدالة على ضالة المنطيق المفلق ـ كما هى عبارته ـ حين يفعل ذلك انما يهدينا الى شىء غير قليل من مصادر ايحاء اللفظة ، وأثرها النفسى الذى هـــو معيار تقديرها الأدبى ووسيلة تقويم النظم الفنى » (٣٧) .

ويلفت الأستاذ / أمين الخولى ـ رحمه الله ـ الى ما أومأنا اليه فيما سبق ، من أن (الزمخشرى) بمنهجه فى (أساس البلاغة) قد قدم الأنموذج الرائد للمعجم البلاغى اللغوى فى وقت واحد ، الذى يعد مدرسة بلاغية لغوية تربوية لشداة فن القول يعبون منه ما يحلو لهم ، والوتـــر المرن الحساس يضربون عليه ما يشاءون .

أقول : ان المرحوم الخولى يلفت الى ذلك بقوله : « فانه (يقصد الزمخشرى) ـ شكر الله له ـ قد قدم للنشء الصغار ، من شـــــداة المتأدبين ، بما ساقه من نوابغ الكلم مادة أدبية ، تجرى رسلة على أسلات ألسنتهم ، وتمر عذبة على عذباتها ـ كما يقول ـ فهيأ لهم باســـتعمال معجمه هذا رياضة أدبية تكسبهم المادة اللغوية ، وتصقل الذوق وتسعف القلم » (٣٨) .

ذلك الذى قدمناه هو ما يراه المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ـ ونحن معه ـ من مزايا ، ترجع اليها أهمية معجم (أساس البلاغة) مما يجعله يحيا حياة غير أثرية يوم تنتصر الحياة ، ويخرج المعجم الجديد ، والصالح للبقاء ، الذى يجعل المعاجم العادية أثرية فحسب ـ على حـد

---

(٣٧) المرجع السابق : ح ، ط .
(٣٨) المرجع نفسه : ط .

تعبير الخولى - أو معاجم تنهض بدور الشهادة القوية بصحة نسب الكلم العربى وأصالته وعراقته بازاء دلالته المعجمية المجردة - على ما نرى - .

وقفات مع (الزمخشرى) فى اطار الحقيقة والمجاز :

لقد سبق أن ذكرنا أن كتاب (أساس البلاغة) للعلامة (أبى القاسم الزمخشرى) يعد أول معجم لغوى عنى بتمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، يقول الأستاذ الدكتور / حسين نصار : « والأساس هو المعجم الوحيد فى العربية ، الذى يعنى بهذا الجانب ، حتى تأثر به أصحاب المعاجم المتأخرة » (٣٩) .

فهذه الناحية لم يطرق بابها أحد ممن قدموا لنا معاجم لغوية قبل (الزمخشرى) وهى خطوة على درجة من الأهمية ، لدرجة أن بعض الباحثين (٤٠) ، يعدها خطوة موفقة على طريق تطور العمل المعجمى .

ويمكن القول - بموضوعية مطلقة - بأن (جار الله) فى هذه الناحية ، يعد رائدا لمن نسجوا على هذا المنوال من أصحاب المعاجم اللاحقين بعده « ومن هؤلاء (ابن الطيب) فى (اضاءة الراموس) و (الزبيدى) فى (تاج العروس) وغيرهما » (٤١) .

فقد قلدوه ، « واعتمدوا كثيرا فى تلك الناحية على (أساس البلاغة) (للزمخشرى) » (٤١) .

فـ (الزمخشرى) فى ظاهرة تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية سابق بها ، مبتكر لها ، رائد على طريقها ، غير منازع فى هذا السبق والابتكار والريادة .

---

(٣٩) المعجم العربى : نشأته وتطوره : ٢/٦٩٧ .
(٤٠) ينظر فى ذلك : دراسات فى المعجمات العربية : ١٤٣ .
(٤١) الفكر المعجمى عند العرب قديما وحديثا : ١٨٤ ، ١٨٥ .

هذا بالاضافة الى ما سبق أن ذكرناه ، من ميزات ذات وزن راجح فى الوسط العلمى ، مما أهل (أساس البلاغة) لأن يتبوأ - عن حق وجدارة - بارز مكان ورفيع مكانة فى المكتبة العلمية العربية ، وفى تقدير العلماء ، معجما يحتفظ دائما بجدته ، تائية به سماته الجلى عن حياة معجمية نمطية أثرية ، يوم تنتصر الحياة ، فتوجد معاجم تتابع تطور اللغة ، وتساير تدرجها - على حد قول المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ، فى كلمته بين يدى كتاب (أساس البلاغة) .

وانبعاثا من أن تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، ينتسب فى بدايته الى (الزمخشرى) فى (أساس البلاغة) نالت هذه الظاهرة عناية الباحثين والدارسين فى الميدان اللغوى .

فلم تنهض دراسة للمجعمات العربية - فيما أعلم - الا استوقفتها فى تناولها (أساس البلاغة) هذه الظاهرة ، ونالت من صاحبها لون عناية واهتمام ، على تفاوت بين أولئك الدارسين فى حجم ونوعية العناية بهذه الظاهرة .

وتقتضينا النصفة والموضوعية هنا أن نقرر - فى جلاء - أن جل تلك الجهود التى تناولت المعجمات ، وعرضت فى أثناء تناولها اياها لـ (أساس البلاغة) تبدو جهودا ضئيلة محدودة عجلى ، فى ساحة المماتنة العلمية والعمق فى التناول والشمول فى الدراسة والبحث ، بازاء تلك الدراسة العميقة الضخمة الشاملة المستأنية التى قدمها الأستاذ الدكتور (حسين نصار) فى أطروحته العلمية ، التى نال بها درجة (الدكتوراه) : (المعجم العربى ... نشأته وتطوره) .

وقد عرضت هذه الدراسة - فيما عرضت - لمعجم (أساس البلاغة) هذا ، والتفتت التفاتة علمية مشكورة لتمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، فى عمق ولماحية واستقصاء .

على أن ذلك لا يعنى أننا نغض الطرف عن دراسات أخرى شقائق لهذه الدراسة أو نغض منها ، فذلك لون بغيض من بخس الناس أشياءهم، وهى شنشنة سيئة هدامة ، لا تمت الى أخلاقيات العلم والبحث بنسب ، بالاضافة الى أن فى ذلك اهدارا مشئوما لجانب من جوانب الجهـــود العلمية لعلماء وباحثين تتلمذنا عليهم وأفدنا من نتاجاتهم .

بيد أن تلك الجهود ـ على كثرتها ووزن أصحابها العلمى الراجح ـ تأتى فى مضمار الموازنة تالية لدراسة الدكتور (نصار) ، ولعل السـبب فى تفوق جهده فى هذه الناحية أنها كانت بحثه لدرجة (الدكتوراه) .

اذا كان ذلك كذلك ـ وهو كذلك ـ كانت هذه الدراسة القيمة قمينة بأن نستبطنها هنا فى ظاهرة تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية ، ـ ونحن بصدد حوار مع (الزمخشرى) فى (أساس البلاغة) فى اطار علمى أبرز نقاطه هذه الظاهرة ـ .

أقول ان هذه الدراسة حرية بأن نستبطنها هنا ، وصولا الى أن تتضح الرؤى ، وتتحدد المواقف ، وتتبلور هذه الظاهرة فى نقـــاط متجسدة .

ويمكن من خلال استبطان صنيع الدكتور (حسين نصار) حول هذه الظاهرة أن نبديها ـ أى الظاهرة ـ وقد تبلورت متجسدة فى النقاط الآتيـــة :

١ ـ كان (الزمخشرى) ـ رحمه الله) يقدم للمجاز بعنوان خاص به يمثل فاصلا بين المعانى الحقيقية التى تقدمت والمعانى المجازية التى تتلوهـــا .

وكان العنوان يتمثل فى معظم المواد اللغوية فى قول (جار الله) : « ومن المجاز » ويفسر الدكتور (نصار) المراد من كلمة (المجاز) بأنه اسم عام لكل المجاز .

وأحيانا كان عنوان (الزمخشرى) يتمثل فى قوله : « ومن كما فى مواد : « أخر - صدف - جمع - زيل - سوء » وغيرها .

وأحيانا كان عنوان (الزمخشرى) يتمثل فى قوله : « ومن المستعار » وذلك على نحو ما هو فى المواد : « عجز - وعد - عذر - عذم - عرف » وغيرها .

ويقرر الدكتور (نصار) أن (الزمخشرى) لم يكن فى تلك العناوين المختلفة يهدف الى فصل المجاز عن الكناية ، ولا الى فصل المجاز والكناية معا عن الاستعارة ، لكنه كان يورد هذه العناوين الثلاثة على أنها مترادفة تعنى (المجاز) .

ويبرهن الدكتور (نصار) على ذلك بايراد نماذج تؤكد أن (الزمخشرى) كان يستعمل كلا من (المجاز) و (الكناية) و (الاستعارة) على أنها مترادفة ومن هذه النماذج :

(أ) ادخال (الزمخشرى) الاستعارة تحت اسم المجاز فى مادة (بنى) اذ يقول : « ومن المجاز : بنى على أهله : دخل بها ، وأصله أن المعرس كان يبنى على أهله خباء .. وبنى مكرمة وابتناها ... وملعون من هدم بنيان الله ، أى ماركبه وسواه .... » (٤٢) .

وواضح هنا أن الأسلوب عبارة عن استعارة تبعية فى الفعل (بنى) .

(ب) ادخال (الزمخشرى) الكناية تحت المجاز فى مادة (بنى) اذ يقول : « وطلع ابن ذكاء : وهو الصبح » . وأمثال ذلك كثير .

ولذلك كان (الزمخشرى) يجمع بين عنوانين فيقول : « ومن

---

(٤٢) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٢/٦٩٧ ، ٦٩٨ .

المجاز والكناية ، كما كان يفصل أحيانا بينها فى المادة الواحدة فيقسم المعانى الى ثلاثة أقسام : (حقيقى ومجازى وكنائى) » (٤٣) .

٢ - (الزمخشرى) اذ قسم المجاز فى ايراده للمعانى المجازية كان معظم عنايته متجها للاستعارة ، فهى أبرز الانواع المجازية ظهورا عنده ، وقد دلل الدكتور (نصار) على ذلك بكثير ذكره (الزمخشرى) فى مادة (محو) مصدرا اياه بقوله : « ومن المجاز » فى حين أن كل ما أورده من الاستعارة ، فيما يقرره الدكتور (نصار) (٤٣) .

٣ - لم يورد (الزمخشرى) نوعا واحد من الاستعارة ، بل أورد جميع انواعها بيد ان البارز أكثر لديه يتمثل فى الاستعارة التصريحية ، ثم تليها الاستعارة المكنية (٤٣) .

ونبادر فنقول : انه ان تكن الاستعارة لونا من الوان التجوز فى التعبير فما كان أجدر (الزمخشرى) بأن يخصها بمصطلحها وبخاصة انه ذكره فى كتابه .

٤ - لم يجعل (الزمخشرى) للكناية مادة باكملها كما حدث مع الاستعارة ، بل كان ينثر الكنايات نثرا بين المواد المختلفة ، وكانت عنايته موجهة للكناية عن صفة ثم للكناية عن موصوف ثم أخيرا للكناية عن نسبة (٤٤) .

٥ - أما عن المجاز اللغوى المألوف فقد اهتم به (الزمخشرى) وسجل الدكتور (نصار) من هذا المجاز فى الأساس ما يلى :

(أ) اطلاق اسم الشىء على مكانه ، وذلك مثل قول (جار الله) فى مادة (سمو) : « أصابتهم سماء غزيرة : مطر » (٤٤) .

---

(٤٣) المرجع السابق : ٢/٦٩٨ .
(٤٤) المرجع نفسه : ٢/٦٩٩ .

(ب) اطلاق وصف الشىء على زمنه ، وذلك كقول (الزمخشرى) فى مادة (أرز) : « ومن المجاز : بتنا بليلة آرزة : يأرز من فيها لشدة بـردها » (٤٤) .

(ج) اطلاق اسم الفاعل على المفعول واسم المفعول على الفاعل ، فمن الأول قول (جار الله) فى مادة (خوف) : « ومن المجاز طريق خائف . قال عبيد :

فرب ماء وردت أجن سـبيله طائف جـديب

ومنه كذلك قول (الزمخشرى) فى مادة (صدر) : « طريق وارد وصادر : يرد فيه الناس ويصدرون » .

وقد ذكر الدكتور (نصار) امكانية تخريج هذه الأمثلة على أنها من المجاز بالحذف (٤٥) .

(د) اطلاق اسم بعض الشىء عليه كله ، وذلـك نحو قـول (جار الله) فى مادة (وجه) : « ومن يرد وجه السيل » (٤٥) .

(هـ) اطلاق اسم الشىء على سببه ، وذلك نحو قول (الزمخشرى) فى مادة : (سمع) : « ومن المجاز : سمع الله لمن حمده : أجاب وقبل » فالسمع سبب للاجابة والقبول » (٤٥) .

(و) مجاز الحذف ، وذلك كقول (جار الله) فى مادة (شمم) : « عرضت عليه كذا فاذا هو مشم لا يريده ، ومعناه : مشم أنفه : رافعه شامخ به » (٤٦) .

---

(٤٤) المرجع نفسه : ٦٩٩/٢ .
(٤٥) المرجع نفسه : ٧٠٠/٢ .
(٤٦) المرجع نفسه : ٧٠١/٢ .

(ز) التعكيس والتهكم ، وذلك مثل قول (الزمخشرى) فى مادة (جدى) : « ويقال جدا عليه شؤمه ، اذا جر عليه . وهو من بـــاب التعكيس ، كقوله : (فبشرهم بعذاب أليم) قال الفزارى :

رعى طرفها الواشون حتى تبينوا هواها ، وقد يجدو على النفس شؤمها

والتهكم آت من أن الجدا : الفضل والعطية » (٤٦) .

(ح) التعبيرات الخاصة : فقد وضع (الزمخشـــرى) التعبيرات الخاصة التى فقدت معناها الحرفى من ألفاظها المؤلفة منها وصارت لها معان جديدة لا تمت الى معانيها القديمة بصلة ، وذلك نحو قـــــول (الزمخشرى) فى مادة (أبو) : « ومن المجاز لا أبا لك ، ولا أبا لغيرك ، ولا أبا لشانئك ، يقولونه فى الحث » (٤٦) .

(ط) وضع (الزمخشرى) بعض الأمثال فى المعانى الحقيقية وبعضها الآخر فى المعانى المجازية ، دون أن يذكر فرقا بين هذا وذاك ، ومن غير فرق فى الواقع .

فمن الأمثال التى ساقها فى القسم الحقيقى : ما ذكره فى مادة (ابل) من : « آبل من حنيف الحناتم » ، ومن الأمثال التى أوردها فى القسم المجازى : ما ذكره فى مادة (بيض) : « كانت بيضة العقر ، للمرة الواحدة » (٤٦) .

٦ ـ عنى (الزمخشرى) بالعبارات المجازية فى القرآن الكريـــم والحديث الشريف ، اذ أن كتابه (أساس البلاغة) يهدف ـ كما سبق أن ذكرنا ـ الى الكشف عن اعجاز القرآن الكريم ، وبلاغة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتابه ملىء بنماذج لكل ذلك (٤٧) .

٧ ـ لم يفصل (الزمخشرى) كل نوع من الاستعارة والمجاز على

---

(٤٦) المرجع نفسه : ٢/٧٠١ .

(٤٧) المرجع السابق : ٧٠٢ .

حدة ، ولم يسم أى نوع منها ، بل أورد بعضها من وراء بعض دون تمييز (٤٧) .

٨ ـ اعتاد (الزمخشرى) فيما ساقه من أنواع المجار أن يذكر العبارة المجازية ثم يتبعها بتفسير المعنى المراد منها فى بعض المواد .

٩ ـ كان (الزمخشرى) يذكر الأصل الحقيقى للعبارة المجازية ، بازاء معناها المجازى الذى استعملت فيه ، وقد نمذج الدكتور (نصار) لذلك بعدة نماذج منها ما ساقه عن (الزمخشرى) فى مادة (بنن) اذ قال : « ومن المجاز : أبنوا بالمكان أقاموا به ، وأصله ما يحدث فيه من بنه « رائحة » نعمهم ، ثم كثر حتى قيل لكل اقامة : ابنان » (٤٧) .

ويذكر الدكتور (نصار) أن (الزمخشرى) كان يذكر الأصل الحقيقى فى بعض المواد فى صدر بيانه للتشبيه المجازى ، كما كان فى بعض الأحيان كان يذكر ذلك المعنى الأصلى تحت لفظ الاستعارة لا التشبيه » (٤٨) .

على هذا النحو تمكن الدكتور (حسين نصار) من الاحاطة بصنيع (الزمخشرى) فى (أساس البلاغة) فى اطار تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية .

ملاحظات حول نشاط (الزمخشرى) فى الحقيقة والمجاز :

مع ذلك العمل العلمى القيم الواضح فى أساس البلاغة ، ومع تلك الرؤية الحكيمة اللماحة ، التى ارتآها المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ، من تميز (الأساس) عما سبقه من المعاجم بميزات تؤهله الى أن يكون ـ بما أخذ به صاحبه نفسه من نهج فى عرض المواد فى معارض أدبية تبرز ايحاءها وقيمتها ـ المعجم الذى يحتفظ بجدته يوم تنتصر الحياة فتوجد معاجم تتابع تطور اللغة وتساير تدرجها .

---

(٤٧) المرجع السابق : ٧٠٢ .

(٤٨) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٧٠٣/٢ بتصرف .

ومع كل ذلك ومع أن (الأساس) هو المعجم الأول الذى يجمع الى العناية باللغة العناية بالبلاغة ، والمعجم الأول الذى انتحى تمييز المعانى الحقيقية عن المعانى المجازية .

مع كل ذلك ومع الكثير مما قدمناه من سطور هذا البحث ، فان لنا مع (جار الله) وقفات وملاحظات ، فى اطار نشاطه بصدد الحقيقة والمجاز ، نسوقها فى السطور التالية :

١ ـ (الزمخشرى) ـ وقد اهتم بالأساليب المجازية وافرد لها قسما مستقلا بعد ذكر المعانى الحقيقية ، نجده قد « أطلق اسم المجاز على جميع الاستعمالات التى لم تسلك سبيل الحقيقة ، ولم يفرق بين أصنافها ، من مجاز مرسل ، واستعارة بأقسامها ، وكناية بأنواعها ، بل نراه استعمل لفظ الاستعارة والكناية على أنها رديفة للمجاز ، وكان جديرا به ـ وهو من أساطين البلاغة وفحولها ـ أن يعنى بتلك النواحى ويبرز هذه الاتجاهات ، ليكون معجمه عما أورده من أجله » (٤٩) .

ويعتذر عن (الزمخشرى) فى ذلك ، أستاذنا الدكتور (شعبان عبد العظيم) فيقول : « وعذره فى ذلك أنه لم يعرض للبلاغة فى أساسه بمعناها الاصطلاحى المعروف ، اذ كان شغله الشاغل عرض الأساليب والعبارات والتعرف على ما فيها من دلالات وايحاءات مجازية » (٥٠) .

وهذا الاعتذار من أستاذنا عن (الزمخشرى) فى هذه النقطه ، يكاد يلتقى مع ما سبق أن سقناه فى رؤية المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ، بشان التمييز بين الحقيقة والمجاز ، فقد رأى ـ رحمه الله ـ عدم التسليم بها خصيصة من خصائص (أساس البلاغة) لـ « أن المعنى الاصطلاحى المستقر للمجاز اللغوى لم يكن قد بلغ مداه عندما كتب (جار الله)

---

(٤٩) المعاجم اللغوية : د . نجا : ١٨٥ .
(٥٠) المعجم العربى دراسة ونقدا : ١٦٠ .

كتاب (أساس البلاغة » (٥١) فـ (الاصطلاح على معنى المجاز لـم يكن فى عهد (جار الله) مستقرا تمام الاستقرار » (٥٢) .

على أننا نجد من يقول ان تجاوز الزمخشرى الاصطلاحات العلمية لم يكن فى (أساس البلاغة) وحده ، بل انه قد تجاوز كذلك فى كتبه الأخرى وأهمها (الكشاف) وقد ذكر الدكتور (حسين نصار) فى كتابه شيئا من ذلك نقلا عن الدكتور (مصطفى ناصف) فى رسالته : (البلاغة عند الزمخشرى) واختتم الدكتور (نصار) كلام الدكتور (مصطفى ناصف) بقوله : « ونختم أقواله (أى أقوال ناصف) بما يلي : (وخلاصة ما يقال فى ذلك : أن البلاغيين وضعوا قواعد لبلاغة الصور البيانية بدا الزمخشرى مهملا لها) » (٥٣) .

والأمر قد يبدو هينا لو وقف عند ذلك ، بحيث يطلق (الزمخشرى) اسم المجاز على جميع الاستعمالات التى لم تسلك الحقيقة ، ولا يفرق بين أصنافها من مجاز مرسل وكناية بانواعها واستعارة باقسامها ، فقد يشفع فى ذلك ما سبق أن سطرناه عن أستاذنا الدكتور (شعبان عبد العظيم) وعن المرحوم الأستاذ / أمين الخولى .

لكن الذى لا معذرة فيه ، مما يلاحظ على (جار الله ـ رحمه الله ـ أمور أخرى تتصل بالحقيقة والمجاز ، تضاف الى الأمر الأول برقم / ١ وهى :

٢ ـ أدخل (الزمخشرى) معانى مجازية فى المعانى الحقيقية ومن ذلك قوله فى مادة (بطن) : « ونثرت المرأة للزوج بطنها ، اذا اكثرت الولد » .

---

(٥١) كلمة المرحوم الاستاذ/أمين الخولى فى صدر أساس البلاغة : و .
(٥٢) المرجع نفسه : ز .
(٥٣) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٧٠٤ ، ٧٠٥ بتصرف .

وفى مادة (أخذ) قال : « وفلان أخيذ فى يد العدو وهو أسير فتنة وأخيذ محنة » وفى (زعنف) قال : « اجتمع الصميم والزعانف ، وهم الأدعياء ، وهى فى الأصل أطراف الأديم وأجنحة السمك » (٥٤) .

٣ ـ ادخل (جار الله) معانى حقيقية فيما هو مجازى ، ومن ذلك قوله فى مادة (أكل) : « ومن المجاز : فلان أكل (بتضعيف عين الفعل) غنمى وشر بها (بتضعيف عين الفعل كذلك » (٥٥) .

وفى مادة (حدر) قال : « العين تحدر الدمع ، والدمع يحدر الكحل » (٥٥) .

وفى مادة (زيد) قال : « ومن المجاز : فلان يستزيد فلانا : يستقصره ويشكوه وهو مستزيد ، وكتب اليه كتاب استزادة ، وهم زيد على مائة ، وزيادة ، قال ذو الأصبع العدوانى :

وأنتم معشر زيد على مئة فأجمعوا أمركم طرا فكيدونى

أى زائدون » .

يقول الدكتور (حسين نصار) : « وكل هذا وما شاكله ليس من المجاز فى شىء ، اللهم الا اذا كان مجاز اشتقاق ، لاختلاف مدلول الصيغة المستعملة عن الصيغة الأصلية » (٥٦) .

٤ ـ والأعجب من ذلك أن نرى أن (جار الله) قد وضع الاستعمال الواحد للفظ الواحد فى المادة الواحدة ، مرة فى قسمها الحقيقى ، ومرة أخرى فى قسم التعبيرات الجازية .

---

(٥٤) المرجع نفسه : ٧٠٣ .

(٥٥) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٧٠٤ والمعجم العربى دراسة ونقدا : ١٦١ .

(٥٦) المعجم العربى نشأته وتطوره : ٧٠٤ والتعليقة رقم/ ١ بذيل الصفحة .

فهو - على سبيل المثال - يقول فى مادة (بوأ) : « وهم أكفاء سواء ودماؤهم بواء ... ومن المجاز : الناس فى هذا الأمر بواء : أى سواء » . وكذلك نجده يضع النوع الواحد فى القسمين قسم التعبيرات الحقيقية ، وقسم التعبيرات المجازية (٥٧) .

٥ - ثبت المعانى الحقيقية والأخرى المجازية ، على أن الذى يقرره علم الدلالة أن الحقيقة والمجاز فى حركة دائمة دائبة متطورة ، وأنهما يتبادلان مراكزهما .

كما أن الحكم على الحقيقة والمجاز ، لا يكون صحيحا - على ما يقرره المرحوم الدكتور (ابراهيم أنيس) الا اذا اقتصر على بيئة معينة وجيل خاص ، فالمجاز القديم مصيره حقيقة والحقيقة القديمة قد تتجه الى الاندثار ،

وهكذا تنتقل ألفاظ اللغة من ميدان الى ميدان عبر الأجيال البشرية ، وذلك هو التطور الدلالى (٥٨) .

رأى ورؤية :

يتبدى لنا من خلال ما سبق ، أن (جار الله) اذ نص على المجازية بالنسبة لبعض المعانى ، وعلى الحقيقية بالنسبة لبعضها الآخر - مع أخذنا فى الاعتبار ما لا حظه عليه الباحثون المحدثون من تجاوزات فى ذلك - يتبدى لنا أن تمييزه المعانى بعضها عن بعض ، لا يلقى قبولا فى نظر الدكتور (ابراهيم أنيس) بناء على ما رآه من أن الحقيقة والمجاز فى حركة دائبة متطورة ، وأن كلا منهما يتبادل مواقعه مع الآخر بفعل عوامل التطور اللغوى وغير ذلك .

---

(٥٧) المرجع نفسه : ٧٠٤ .
(٥٨) دلالة الألفاظ : ١٣١ ، ١٣٢ بتصرف .

ومع أن هذا الذى رآه الدكتور أنيس - رحمه الله - يلتقى مع ما يقرره البحث اللغوى الحديث ، فقد جاء فى كلامه - رحمه الله - ما لا نسلم به له ، بل ما نرده عليه ، دون تعسف معه أو تحيف عليه .

ذلك بأنه بعد ذكره ما اقتبسنا محتواه فيما مضى موافقين اياه عليه ، أردف فقال : « تلك هى الظاهرة التى جهلها أو تجاهلها الزمخشرى حين عرض للحقيقة والمجاز فى معجمه (أساس البلاغة) ففى رأيه أن « الكتابة ، والقراءة والخلق والهجاء » كلها من المجاز ، ويقول ان الدلالة الحقيقية للفعل « كتب » (هو) (٥٩) فى مثل : « كتب السقاء أى خرزه بسيرين » أى بمعنى الضم والجمع ، أما الكتابة المألوفة فدلالتها مجازية » .

ثم يضيف بعد ذلك بقليل قائلا : « هو (أى الزمخشرى) اذن يفترض أن العرب قد عرفوا من (الكتابة) خرز السقاء قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء » (٦٠) .

فذلك رأى يرتئيه الدكتور أنيس ، ونحن بدورنا نرده عليه فى الرؤى الآتية :

١ - فى البداية اذا كانت الظواهر والقوانين التى استحدثها البحث اللغوى الحديث كظاهرة التطور الدلالى ، والتى انطلق منها توجه الدكتور أنيس لنقد (الزمخشرى) فى تثبيته المعانى الحقيقية والمجازية ، اذا كانت تلك الظواهر قد أفاء بها الله على الباحثين المحدثين ، فان ذلك ليس مدعاة لاتهام أعلامنا الأقدمين بالجهل أو التجاهل ، فلم تكن ظاهرة التطور الدلالى معروفة بأسمها فى زمن الزمخشرى حتى يتهم

---

(٥٩) نص عبارته والمناسب (هى) .
(٦٠) دلالة الألفاظ : ١٣٢ .

بالجهل ، كما أننا لا نعرف أن من أخلاق هؤلاء الأعلام أنهم يعرفون الحقيقة ثم ينكرونها ، وذلك هو معنى التجاهل .

٢ - نص المرحوم الدكتور (أنيس) على أن الزمخشرى فى مادة (كتب) جعل الكتابة بمعناها الشائع الآن من المجاز ، وجعل الدلالة الحقيقية للفعل (كتب) تتمثل فى كتب السقاء أى خرزه بسيرين » .

وما ذكره الدكتور أنيس هو عكس ما نجده فى معجم (أساس البلاغة) تماما فما ذكره (الزمخشرى) ورد هكذا : « (ك ت ب) - كتب الكتاب يكتبه كتبة وكتابا وكتابة وكتبا ، واكتتبه لنفسه : انتسخه ... » (٦١) .

وهذا يفهم منه أنه جعل المعنى الحقيقى للمادة متمثلا فى الكتابة بمعناها الشائع الآن لدينا . وهو عكس ما ادعاه الدكتور أنيس .

ثم قال الزمخشرى بعد عدة تراكيب ساقها فى دائرة الدلالة الحقيقية للمادة : « ومن المجاز : كتب عليه كذا : قضى عليه ، وكتب الله الأجل والرزق ، وكتب على عباده الطاعة وعلى نفسه الرحمة ، وهذا كتاب الله : قدره .... وكتب النعل والقربة : خرزها بسيرين ، وقارب بين الكتب وهى الخرز ، وأكتب سقاءه : أوكاه ، تقول لصاحبك : اكتب سقاءك فيقول : ما يستكتب لى ، أى ما يستوكى » (٦١) .

وواضح من هذا النص أن الزمخشرى قد سلك دلالة المادة على خرز النعل والسقاء فى عقد المعانى المجازية ، وهو عكس ما نسبه الدكتور أنيس اليه .

٣ - وليت الأمر قد وقف بالدكتور أنيس عند هذا الحد ، بل نراه يتعجب ويتهكم من صنيع الزمخشرى الذى زعمه اذ يقول : « هو (يقصد

---

(٦١) الأساس : ٣٨٦ .

الزمخشرى) اذن يفترض أن العرب قد عرفوا من (الكتابة) خرز السقاء قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء » (٦١) .

وواضح من ذلك أن الدكتور أنيسا يريد أن يقول ان العرب قد عرفوا الكتابة بمدلولها الآنى قبل أن يعرفوها بمعنى خرز القربة والنعل ، أو على الأقل ليس ثمة من دليل على أن معرفتهم أن الكتابة تعنى خرز السقاء والنعل قبل دلالتها على معناها الآنى حتى مع شيوع الأمية فيهم .

ونحن لا نفتئت اذا قلنا ان هذه مغالطة من الدكتور أنيس فشيوع الأمية لدى العرب من ناحية وتمكن القرب فى حياتهم مما يرشح لتقوية أن الدلالة الحقيقية لمادة (كتب) فى خرز السقاء والنعل وأن الدلالة الآنية للمادة الشائعة بيننا دلالة مجازية .

والذى ليس من اليسير البرهنة عليه فعلا هو أن تكون دلالة المادة على الكتابة بمعناها الآنى الشائع هى الدلالة الحقيقية وخصوصا اذا أخذنا فى الاعتبار أن العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب .

٤ - على أن الزمخشرى لم يقل ما جهله بسببه الدكتور أنيس ، بل الذى قاله الزمخشرى هو عكس ما ادعاه . عليه الدكتور أنيس تماما .

فقد جعل الزمخشرى دلالة المادة على كتب السقاء والنعل أى خرزهما دلالة مجازية فى حين جعل دلالتها على مدلول الكتابة الآنى دلالة حقيقية ، على ما سبق بيانه .

ولو فعل الزمخشرى ما زعمه الدكتور أنيس فقال ان دلالة المادة الحقيقية تتمثل فى خرز السقاء والنعل ، ودلالتها المجازية تتمثل فى الكتابة بمدلولها الآنى الشائع لأصاب المحز ايما اصابة .

---

(٦١) الأساس : ٣٨٦ .

ومن ثم فان الزمخشرى قدوهم فى تقسيمه المعانى بهذه الكيفية فى المادة ثم ان الدكتور أنيسا قدوهم هو الآخـــــر وعكس ما قال بـــه الزمخشرى ٠

أما وهم الزمخشرى والدكتور أنيس فانه يتضح فى ضوء ما ذكـره أحمد فارس الشدياق فى (الجاسوس) حيث قال : « ومما أحسبه من الخلل أيضا تقديم المجاز على الحقيقة ، أو العدول عن تفسير الألفاظ بحسب أصل وضعها مثال ذلك لفظة (كتب) فان الجوهرى ابتدأ هذه المادة بقوله : الكتاب معروف ، وصاحب القاموس بقوله كتبه كتبا وكتابا خطه ، ومثله صاحب المصباح والزمخشرى مع أن أصل الكتب فى اللغـة للسقاء ، يقال : كتب السقاء ، أى خرزه بسيرين وهو من معنى الضـــم والجمع ، ومنه الكتيبة للجيش ، ثم نقل هذا المعنى الى كتب الكتاب ، وحقيقة معناه ضم حرف الى آخر ٠ وانما قلت ان أصل الكتب للسقاء ، لأن العرب عرفت السقاء واحتاجت الى الشرب منه والى اصلاحه قبل أن تعرف الكتابة ، ولو عرفت ما للقربة من الأسماء والصـــفات لهـــزك العجب » (٦٢) ٠

على أن هذا الذى ذكره (الشدياق) يرتد فى أصالته وتراثيته الى نتاج علمائنا الأقدمين فهذا هو الزجاج يقول : فى أثناء عرضه لقول الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـــا معهم » (٦٣) : « ومعنى كتاب الله ههنا : القرآن ، واشتقاقه من الكتب ، وهى جمـع كتبة وهى الخرزة ، وكل ما ضممت بعضه الى بعض على جهة التقارب والاجتماع فقد كتبته ، والكتيبة : الفرقة التى تحارب ، من هذا اشتقاقها ، لأن بعضها منضم الى بعض » (٦٤) ٠

---

(٦٢) الجاسوس على القاموس : ١١ ٠
(٦٣) من الآية ٨٩ من سورة البقرة ٠
(٦٤) معانى القرآن واعرابه : ١/١٧٠ ٠

فى هدى هذا يتضح وهم الزمخشرى ووهم الدكتور أنيس معا ، فوهم الزمخشرى فى جعله دلالة المادة على خرز السقاء والنعل مجازا وجعله الكتابة بمعناها الآنى الشائع من المعانى الحقيقية .

وأما وهم الدكتور أنيس فواضح من خلال كلامه بعد أن عكس كلام الزمخشرى ، لأنه عكس كلام (جار الله) فزعم أنه جعل دلالة المادة على خرز السقاء حقيقة وعلى الكتابة الشائعة مجازا ثم اعترض على ذلك وجهل الزمخشرى .

« وبعـــد »

فان كل هذه الحوارات المتواضعة والرؤى المبتدئة ، لا تغض مـــن قيمة معجم عظيم كمعجم (أساس البلاغة) .

ويكفيه ما ذكره العلماء بشأنه على النحو الذى مر بنا فى كلام المرحوم الأستاذ / أمين الخولى ، ثم ما يقوله عنه بعضهم من أنه « معجم فى اللغة العربية لا مثيل له فى طريقته ، لأنه يبحث على الخصوص فى استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل ، بقطع النظر عن معانيهـــا المستقلة ، أو اشتقاقها ، فاذا أراد شرح مادة أتاك بجملة فيها تلك المادة فى موضعها من الاستعمال ، وهو جزيل الفائدة » (٦٥) .

فمن الممكن أن نقول بدقة وموضوعية :

- ان معجم (أساس البلاغة) هو المعجم الذى يمثل معجما خاصا بالعبارة المؤلفة البليغة ، وليس بمعجم تحتشد فيه الألفاظ بازاء دلالاتها المجـــردة .

- انه معجم رائد طليعة فى ميدانه ، فاليه يرجع الفضل فى توجيه

---

(٦٥) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢/١١٢ .

حركة المعاجم الى انتقاء العبارات الأدبية البليغة ، ومن انتحى هـــذا المنتحى ممن أتوا بعده لم يزيدوا فى هذا المضمار عن ان كانوا له تبعا يقتفون فى ذلك أثره ٠

ـ انه معجم يرجع اليه فضل العناية بالمجاز ، وتوجيه الاهتمام اليه فى ذاته وليس كما كان الأمر قبلا ٠

وقد عنى هذه الأمور الأستاذ الدكتور (حسين نصار) حين قال : « ومجمل القول أنه يجمل بالمرء النظر الى (أساس البلاغة) على انه معجم خاص بالتعبير العربى ، وبالعبارة المؤلفة البليغة ، لا انه معجم الألفاظ ، فيوضع الكتاب موضعه اللائق به ، ويقدر حق قدره ، وينسب الى مؤلفه فضل توجيه حركة المعاجم الى العبارات الأدبية البليغة ، بدلا من الاقتصار على الألفاظ المفردة ، وفضل العناية بالعبارات المجازيـــة المختلفة الأنواع وتوجيه الاهتمام اليها ، فى ذاتها ، لا كما كان يفعل من سبقه » (٦٦) ٠

فرحم الله الامام(الزمخشرى) وجزاه عن الاسلام والعربية خير الجزاء ، انه نعم المولى ونعم النصير ٠

---

(٦٦) المعجم العربى ... نشأته وتطوره : ٢/٧١٠ ٠